

النسق الأيديولوجي في مسرح عز الدين جلاوي مقاربة في ضوء النقد الثقافي

*The ideological system in the theater of Izz al-Din Jalawji
An approach in light of cultural criticism*

وهيبة جراح

مخبر تحليل الخطاب

المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف

ميلة/ الجزائر

W.djerrah@centre-univ-mila.dz

يسمين بودربالة

مخبر التراث الأدبي الجزائري الرسمي والهامشي

المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف

ميلة/ الجزائر

Y.bouderbala@centre-univ-mila.dz

تاريخ الارسال: 2024/02/24 تاريخ القبول: 2024/10/09 تاريخ النشر: 2024/12/20

الملخص:

يهدف المقال إلى إثارة قضية خصوصية النسق الأيديولوجي في الإنتاج المسرحي الجزائري، لا سيما أن المسرح واحد من أبرز الأجناس الأدبية التي تملك القدرة على التواصل مع النفس البشرية؛ لأنه يحاكي رغبات الفرد، وأفكاره، وأحلامه، وآماله؛ بذلك عد أبرز الفنون تعبيراً عن واقع الإنسان، فكُتّاب المسرحية الجزائرية سخرُوا طاقاتهم الإبداعية لهدف التطهير والتعذيب والتعليم أولاً قبل الإمتاع، الأمر الذي خلق حوارية الثقافات داخل الخطابات المسرحية.

ونأخذها هنا "عز الدين جلاوي" عينة للفحص والتحليل وفق المقاربة النقدية الثقافية، خاصة أن كتاباته تنسم بخصوصية فكرية ومحمولية ثقافية غزيرة لا بد من فك شفراتها، بحثاً في خطاب مثخن بالصراعات والصدمات السياسية، في مفارقات سردية تنم عن تهكم واضح للواقع العربي وأنظمة الحكم فيه، باحثاً عن أسباب تقوده نحو الحرية؛ أي التحرر من قيود سلطة سياسية مستبدة.

الكلمات المفتاحية: النسق، الأيديولوجيا، الصراع السياسي، الحرية، الرفض، المسرح

Abstract:

This article aims to clarify Algerian places in the Tunisian travel text, considering that the journey is one of the literary arts that is based on the structure of travel and travel from one place to another with the aim of exploring

* المؤلف المرسل.

different places and multiple cultures. Place is considered the backbone on which the journey is built, as there is no journey without a place.

The article took the "Five Trips to Algeria" blog as a model for study and analysis, and from here we pose the following problem: To what extent did Tunisian trips contribute to highlighting the Algerian place? To answer them, we adopted the descriptive analytical approach as it is the most appropriate approach for this type of study.

Keywords: The trip, Place, Imagologie, Algeria.

مقدمة:

تعد الرحلة إحدى الأشكال الأدبية السردية النثرية الكبرى للأدب، المتداخلة والمنفتحة على عدة حقول معرفية (أدب السفر، الجغرافيا، التاريخ، الإثنوغرافيا) باعتبارها كتابة أدبية تتضمن بنية سردية وآليات كتابية، فهي نص سردي مفتوح يتم تنضيدها في إطار وعي مؤطر ببنية السفر، متخذة ضمير المتكلم (الأنا) وسيلة للتعبير عن الذات والهوية.

كما أنها بوابة استنطاق عالم المغامرة، والمبنية على السفر والاستكشاف والبحث عن المجهول، والتعرف على الأمكنة والأفضية الجديدة في قالب أدبي نثري يصور من خلاله الرحالة كل ما شاهده بأسلوب لغوي يبعث على التشويق وحب الاستطلاع لكل ما هو مجهول وجديد. ومن هنا، فالمكان من بين المكونات الأساسية والرئيسية للنص الرحلي، فهو بمثابة العمود الفقري لها، فمن خلاله ينتقل الرحالة ويتعرف على الشعوب والأمم، باعتباره عنصرا فعالا وقائما بذاته وله خصوصيات، إذ فيه تُجرى الأحداث وتتحرك الشخصيات، وإذا تأملنا النصوص الرحلية نجدها أولت عناية خاصة للأمكنة التي يشاهدها الرحالة عيانا ويقوم بوصفها وصفا دقيقا ومباشرا، وتعد مدونة "خمس رحلات إلى الجزائر" لصاحبها "محمد الخضر حسين" التي اتخذناها موضوعا ونموذجا للتحليل والمقاربة خير دليل على ذلك، كونها تجسد على مساحة الدراسة أهم الأمكنة الجزائرية.

وما يهمنا هو محاولة إبراز أهم الأمكنة وأبعادها في عيون الرحالة التونسيين، وعليه قمنا بطرح الإشكال الآتي: إلى أي مدى أسهمت المدونة في إبراز سلطة المكان؟ وللإجابة على هذه الإشكالية اعتمدنا المنهج الوصفي التحليلي باعتباره المنهج الأنسب لمثل هذا النوع من الدراسة.

I / مصطلحات ومفاهيم نظرية:

إنّ البداية هي الوقوف عند بعض المفاهيم والمصطلحات التي تؤسس لهذه الدراسة، باعتبارها لبنة أساسية في فهم أبعادها وضبط دلالاتها.

1/ أدب الرحلة:

يعرف أدب الرحلة على أنه: "ذلك الأدب الذي يصور فيه الكاتب ما جرى له من أحداث وما صادفه من أمور في أثناء رحلة قام بها لأحد البلدان، وتعد كتب الرحلات من أهم المصادر الجغرافية والتاريخية والاجتماعية، لأن الكاتب يستقي المعلومات والحقائق من المشاهدة الحية، والتصوير المباشر"⁽¹⁾.

نلاحظ من خلال هذا التعريف أن الرحلة تعني السفر والترحال والانتقال من مكان لآخر بهدف الاطلاع على ثقافة الشعوب الأخرى، ورصد لمختلف العادات والتقاليد التي تميز الشعوب عن بعضها البعض وتصويرها عبر مشاهد رحلية بلغة نثرية ساردة.

2/ الصورولوجيا:

تعرف الصورة على أنها: "وسيلة لإعادة تقديم واقع يكشف من خلاله الفرد والجماعة فضاءً اجتماعياً وثقافياً وخيالياً معيناً، بحسب رغبتهم في التوضع ضمنه، لذلك تكمن أهمية دراسة الصورة الأدبية (الصورولوجيا) في أنها توسع أفق الثقافة والتفكير، وتصحح فهمنا للآخر، كما تعمق فهمنا لذواتنا وتضعها في موضعها الصحيح في مقابل الآخر"⁽²⁾.

حسب "أسماء يوسف ديان" فالصورولوجيا تعتبر أداة تحليل لمجتمع وتشريح جزئياته، وتفكيك طبقاته الاجتماعية، ومعرفة خباياه السياسية، كما تسعى إلى فهم ثقافة المجتمع المنظور إليه (الآخر) ومقابلتها بثقافة الناظر (الأنا)، كما تعد الصورة وسيلة للتعبير عن الواقع بواسطة اللغة الواقعية أحياناً استناداً إلى اللغة الفنية لإضفاء طابع الأدبية عليها، وذلك بإعمال الآخر عن طريق الانتقال من الواقع.

فالصورة هي تقديم الآخر بهدف فهم الذات من خلالها، فهي عبارة عن حوار مع الآخر عن طريق تقديمه والتعرف عليه.

II/ علاقة المكان بالرحلة:

يَحْضُرُ المكان بصفة دائمة في النصوص الرحلية لأهميته الفعالة في تشكيل الأحداث وبالتالي فهو يعادل أهمية العناصر الأخرى المشكلة له، فهو مكون رئيسي في بنية النص الرحلي، ومن هنا يتضح أن للمكان أهمية قصوى فهو الضوء لكل عناصر العمل الرحلي، ويكون المساند في تطوير بناء الرحلة.

وعليه، فإن العمل السردي يُبنى على ثلاثة عناصر أساسية هي: الشخصية والحدث والمكان، فلا يمكن الاهتمام بعنصر دون آخر ف"المكان في وجوده الخاص يكاد يكون له قوام ملموس وعلاقته بالأشياء على درجة من العمق تجعلني مغامر بالقول: إن المكان مشتق من هذه الأشياء بينما هو في الوقت نفسه الذي يمنحنا الشكل"⁽³⁾.

يتضح من هنا أن للمكان دور فعال في الرحلة، فهو يحمل ويُجسد جل المعاني المعبرة عنه، ليس فقط الإحياء بالهدوء والسكون والثبات، وإنما يعني كذلك الدراما، فالمكان يؤثر ويتأثر بما حوله، وله دور بارز في مسار الأحداث، ويعتبر المكان القوام الذي يقوم عليه النص الرحلي، فجعله أغلب الرحالين محور أعمالهم الرحلية؛ أي أنهم يجعلون من المكان شخصية محورية.

كما يعتبر المكان عنصر مؤثر وفعال في بنية النص الرحلي، كما يساهم في تفعيل جماليته وشعريته، فيعد بمثابة العمود الفقري الذي يربط أجزاء النص الرحلي بعضها ببعض، وبالتالي فالمكان وعاء لاحتضان الحدث وإنتاج الشخصية، وبذلك فهو من أهم الأجزاء التي يبني عليها الرحالة رحلته، ومعرفة شخصيته، لأن "إدراك الإنسان للمكان المباشر الحسي وصراعه معه ما هو إلا تأكيد لذاته وتأسيس لهويته، فبقدر إحساس الإنسان بالمكان تكمن أهمية وجوده... إن المكان يضيق بحياة الإنسان مثل الزمان تماما، لأن وجوده في المكان يستمر معه طول العمر فلا تكسب الذات أهميتها إلا من خلال تفاعلها مع المكان"⁽⁴⁾؛ أي المكان يعبر عن نفسية صاحبه، إذ باعتبار هذا المكان عايشه وعاش أحداثه وترك في نفسيته أثرا خاصة إذا كانت الشخصيات تمثل جزءا هاما في ذلك المكان.

تصوير الرحالة للمكان ليس بجديد عليه، إذ وجدت الرحلة منذ القدم، منذ بدأ الإنسان يرحل من مكان لآخر باحثا عن المأكل والمشرب، من هنا بدأت رحلة الإنسان في اكتشاف المناطق والبيئات المختلفة عبر رحلاته المتنوعة، فكان ينطلق من مكان إقامته إلى أماكن مختلفة من الأرض، يتوقف حيناً للراحة وتناول الطعام، وأحياناً للنوم ثم يكمل طريقه نحو الهدف المنشود، وبين هذا وذاك يكتشف العديد من المناطق المختلفة، فيساهم ذلك في بناء العديد من الصور السلبية والإيجابية وحتى الحيادية للأماكن التي عبرها أثناء سفره. للمكان أهمية فاعلة في حياة الرحالة، إذ به يبني نصه الرحلي لكونه عنصراً من عناصر تركيبها، وبالتالي فهو يحتاج إلى مزيد من الدراسة والاهتمام، وذلك لارتباطه بذات الرحالة وذكرياته، ومواقفه، وأفكاره تجاه البلد المرتحل إليه.

للحديث عن صورة المكان الجزائري في الرحلات التونسية نتطرق إلى عرض الأمكنة المختلفة التي ورد ذكرها من قبل الأدباء الرحالة فتنوعت وتعددت بين أمكنة إيجابية والأخرى سلبية، بالإضافة إلى أمكنة تاريخية، كما لم يغفل الرحالة عن الحديث عن العمران والشوارع والطرق كأماكن مهمة يتم العبور من خلالها في رحلاتهم، وهذا ما أثرى نصوصهم الرحلية وزادها جمالا، وهذا ما سنتطرق إليه في هذه الورقة البحثية.

III/ هندسة المكان في النص الرحلي:

تناول الرحالة العرب البيئة المكانية للآخر على اختلافها وتنوعها، وخصصوا لها مساحة كبيرة في وصفها وتصويرها، فالمكان بالنسبة لهم هو الطبيعة والجغرافيا التي تجري فيها الأحداث، فوصف المكان غالبا يكون مقرونا بشخصية ساكنيه، وانعكاسا لنمط معيشتهم، وتصويرا لخصوصياتهم القومية والاجتماعية.

إنّ أي رحلة تبدأ من نقطة وتنتهي إلى أخرى، وبين بداية الرحلة إلى نهايتها توجد هناك أمكنة للعبور بمواقعها المختلفة والمعروفة على الخريطة يمر من خلالها الرحالة، وبالتالي يصبح المكان ركيزة لا غنى عنها في بناء النص الرحلي، لكن علاقة المكان بباقي العناصر السردية يختلف من رحلة لأخرى حسب طبيعتها ونوعها، وحالة الرحالة النفسية، أو وضعه بالنسبة للأحداث التي يعيشها، والترتيب المكاني يتبع فيه الرحالة التسلسل المكاني الذي يقطعه من خطة سير الرحلة أولا بأول، وهو ما يسمى عند القدماء بـ "مراحل الطريق".

من خلال ما سبق نستنتج تنوع الحضور المكاني في النصوص الرحلية العربية، فنجد أمكنة الانطلاق والعبور، والهدف، بالإضافة إلى المكان النفسي والأيديولوجي، والتاريخي، وكان لتعدد هذه الأمكنة تأثير على الرحالة من حيث قداسة المكان، وتاريخه وإثارة مشاعره.

1/ بنية الأمكنة وأصنافها في النص الرحلي:

تنقسم الأمكنة/الأفضية في هيكل النص الرحلي إلى أصناف، وبحسب ما جاء في الكثير من الدراسات النقدية هناك ثلاثة أماكن كبرى تعتبر الإطار الذي يحدد مسار الرحلة، والتي يمكن الاقتراب منها إجرائيا لفهم بعض آليات اشتغال المكان في النص الرحلي، ومن هنا نجد أنّ المكان في الرحلة ينقسم إلى ثلاثة أماكن رئيسية لابد للرحالة أن يتجاوزها ويبني رحلته من خلالها، وهي كالتالي:

أ/ مكان الانطلاق:

هو المكان الأولي والنهائي الذي منه ينطلق الرحالة نحو وجهته ويعود إليه بعد انتهاء رحلته، ويمثل نقطة انفصاله عن موطنه، والانطلاق نحو مقصده لحظة خروجه، وهو بمثابة الانتقال من مكان إلى آخر، ويمثل نقطة الانطلاق من المكان الأم إلى أمكنة مختلفة بهدف الاستكشاف أو الحج وغيرها، وبظل فضاء الانطلاق حاضرا في النصوص الرحلية لمسألة تدعوها آليات الكتابة، وذلك من خلال: "وفعلا بارحنا مدينة صفاقس في أوائل سبتمبر، فأقمنا بسوسة أياما"⁽⁵⁾، وهو مكان استقرار الرحالة أو حتى مولده -مسقط رأسه- ونشأته، أو اتخاذ الرحالة القرار بالترحال، ففي المدونة محل الدراسة يشترك الرحالة في مكان الانطلاق ألا وهو "دولة تونس" الشقيقة، ويعتبر النقطة المشتركة بين جميع الرحالة، باستثناء "حمزة بوكوشة" في رحلته.

ب/ المكان الجسر:

هو فضاء السير والعبور والمواجهة مع الآخر، لأنه بداية السفر خارج مكان الألفة، بحيث يمثل جسرا للعبور من نقطة الانطلاق إلى نقطة الهدف، خلاله يصبح المكان أمكنة ليس فقط للعبور، وإنما للتزود بالزاد والمعلومات والحكايات والتجارب، مما يجعل العبور أخصب مرحلة في الرحلة، نظرا لتعدد الأمكنة وتنوع التجارب من جراء اللقاءات والصدامات والمفاجآت، "قضينا أسبوعا في مدينة قسنطينة مع شباهيها الناهض، وغادرتها بعده بقصد الذهاب إلى الجنوب لزيارة بسكرة الشهيرة بعلمائها وشعرائها وأدبائها...ولقد مررت بعدة بلدان أشهرها باتنة، والقنطرة"⁽⁶⁾؛ وكلما كانت نقط العبور كثيرة حققت للنص ثراء في الحكايات والصور، فيجيء الحديث عن وقائع العبور أغنى وأكبر حجما من وقائع المكان الهدف، وكل مكان يثير مشاعر معينة لدى الرحالة فيلجأ إلى وصفه وبيان طبيعة العلاقة بينه وبين أهل المكان المرتحل إليهم وما يحملونه من طباع وسمات، وهي الأمكنة الرابطة بين مكان الانطلاق والمكان الهدف، فهو بمثابة جسر رابط يصل الرحالة بوجهته لحظة ارتحاله إلى غاية وصوله، قد تتعدد هذه الأمكنة وتختلف باختلاف الرحلات ووجهات الرحالة.

نلاحظ أن مكان العبور هو المكان الذي يمر خلاله الرحالة قبل الوصول إلى المكان المقصود بغية الراحة والتزود بما يستلزمه لإكمال رحلته، وينقسم مكان العبور إلى قسمين كبيرين:

■ **مكان إيجابي:** وهو مكان مقدس يرتبط بأناس من ذوي المكانة العلمية والفكرية المرموقة، "واتفق أن كان من زمرة هؤلاء الفضلاء الشيخ "أحمد البوعوني" المشار إليه، والشيخ "إبراهيم بن السلي"، ولكل منهما فصاحة منطق وسجية نزاعة للأدب، ولأولهما شعر جيد"⁽⁷⁾، أو مكان حسن جميل يقوم فيه الرحالة بذكر فضائله وقيمه والرجوع إلى تاريخه وماضيه، وإيراد بعض الأشعار عنه، وذكر الأعلام الذين التقى بهم، يقول "الطيب بن عيسى" عن بلدة الوادي⁽⁸⁾:

بلد صحبت به الشيبية والصبا ولبست ثوب العيش، وهو جديد
فإذا تمثل في الضمير رأيتَه وعليه أغصان الشباب تميد

■ **مكان نحس (سلي):** هو مكان جاف يربط الراوي/الرحالة بساكنته، فيلصق به أقبح الصفات والنعوت، ويتضح ذلك في قول الرحالة عن مدينة الجزائر بعد انتشار أزدل الصفات والأخلاق بها: "مع ما فيها من عيوب كشرب الخمر على قارعة الطريق، والتجاهر بالمنكرات بدعوى الحرية، والانهماك في المفاصد كالقمار مظنة ربح الدرهم والدينار إلى غير ذلك من الأمور، وأخصها ارتكاب الفجور ولا موجب يدعوهم سوى التقليد الأعى"⁽⁹⁾.

إن هذه الثنائية التي تتحكم في الانطباع حول مكان العبور هي مسألة تملها الخلفيات القبلية للراوي/الرحالة من خلال قراءاته لنصوص رحلية سابقة، أو مشاهداته المباشرة وملاحظاته حيث يجد ما يتوقعه أو ما يخيب أفق انتظاره، ويتم الانتقال في ذكر أمكنة العبور، فيركز على الأمكنة المعروفة.

■ **المكان الهدف:** هو المكان الذي يحدد نوعية الرحلة ويشير إلى المكان الذي انطلقت نحوه منذ البداية، "ثم بارحنا قسنطينة يوم الأحد في 24 سبتمبر على الساعة 7 صباحا قاصدين مدينة باتنة على الرتل السريع إكسبريس"⁽¹⁰⁾ لأنه "الإطار العام الذي تتحقق فيه الرغبات، فيتم اللجوء إليه عن رغبة وشوق، أو بأمر، أو عن ضرورة وحاجة، أو عن اضطرار، وبين هذه الرغائب أو نقائضها يرتبط المكان المتجه إليه بمسألة الانفصال عن "مكان الأنا"، والتوجه نحو "مكان الآخر"، مع تشكل رؤى وتحديدات لهذا المكان ذهنيا ووجدانيا"⁽¹¹⁾.

وهو المكان المقصود والمنشود منذ العزم على بداية انطلاق الرحلة، أو عزم الرحالة على السفر والانتقال من مكانه الأصلي، كما يمكن أن نعتبر أن مكان الانطلاق هو مكان الأنا/الذات في مقابل أمكنة الغير/الآخر (العبور/الهدف).

ويرتبط المكان الهدف بمدى تحقيق الإنجاز الذي حدده الرحالة أو عدم التوفيق فيه، وفي كثير من النصوص يصبح المكان الهدف فضاء للعبور والانتقال إلى أهداف أخرى، وهذا ما سندشاهده في المدونة موضوع الدراسة.

نجد أن الرحالة اعتمدوا في رحلاتهم على الأماكن الكبرى التي حددت مسار الرحلة بداية من مكان الانطلاق إلى غاية المكان الهدف، دون إغفال أمكنة العبور التي تعددت واختلفت من نص لآخر، وسنلاحظ الفرق، إلا أن الشيء المشترك بين الرحلات هو مكان الانطلاق والمكان الهدف؛ كلاهما انطلق من مدينة تونس إلى التراب الجزائري، كما هو موضح في الجدول الآتي:

ج/ رحلة المهيري:

مكان الانطلاق	المكان الجسر	مكان الهدف
صفاقس	سوسة/القصرين/تالبت/	القطر الجزائري
تالبت	فربانة	تبسة
تبسة	الشريعة / مسكانة	العين البيضاء
العين البيضاء	الخروب، الواد	قسنطينة
قسنطينة	المحطة	باتنة
باتنة	المحطة	بسكرة
بسكرة	الواد الكبير	سيدي عقبة بن نافع

د/ رحلة سعيد أبو بكر:

مكان الانطلاق	المكان الجسر	مكان الهدف
غار الديماو	سيدي الهميسي/ سوق	قسنطينة
مدينة قسنطينة	باتنة/ القنطرة/ المحطة	بسكرة
بسكرة	المحطة	قسنطينة
قسنطينة	المحطة	وادي الزناتي
وادي الزناتي	المحطة	قائمة
قائمة	المحطة	عنابة/البون
عنابة	المحطة	سوق أهراس
عنابة	سوق أهراس	تونس
تونس	قلعة الجردة/ العين	تبسة
باتنة	بسكرة	سيدي عقبة

هـ / رحلة حمزة بوكوشة:

مكان الانطلاق	المكان الجسر	مكان الهدف
دلس	العاصمة الجزائر	بسكرة/ واد سوف
الجزائر	/	بوسعادة
بوسعادة	/	بسكرة
بسكرة	مغرسه هبة/ بلدة قمار/	واد سوف

وا / رحلة الطيب بن عيسى:

مكان الانطلاق	المكان الجسر	مكان الهدف
تونس	سوق أهراس	الجزائر
سوق أهراس	قسنطينة	قالة
قالة	/	الجزائر
الجزائر	قرواو/ بنى مراد	البليدة

زا / رحلة محمد الخضر حسين:

مكان الانطلاق	المكان الجسر	مكان الهدف
تونس	تبسة	الجزائر
سوق أهراس	تبسة	عين البيضاء
عين البيضاء	/	قسنطينة
قسنطينة	/	باتنة
باتنة	/	الجزائر

نلاحظ تعدد الأمكنة في كل الرحلات مما أضفى لمسة جمالية، لأن علاقة الرحالة بالمكان هي علاقة مركزية، يسقط التباسها بعد مغادرته.

فالمكان هو الوسط الذي تتحرك فيه الشخصيات، وتقوم بأفعالها فيه، فهو العنصر المكمل للشخصية في تحديد وظائفها ونمط سلوكياتها، فالمكان بكل تفاصيله هو تعبير عن انطلاق الرحالة وعبوره في الأمكنة المختلفة، فهو الوعاء الحاضن له وفق نمط زمني معين، فالرحلة في أساسها بتعبير تودوروف هي انتقال في الفضاء، لأنها قائمة عليه باعتباره العنصر الفعال المحرك للرحلة والأحداث، إذ وجدناه يغطي مساحة واسعة في متون الرحلات، ومن هنا، فالمكان هو القاعدة الرئيسية الذي تُبنى عليه الرحلة، فهو المعبر والحامل عن هوية وكيونة المجتمع.

تنوعت الأمكنة الرحلية إلى أن شكلت إلى جانب الرحالة مبدأ فاعلا في بناء النص، والتأسيس لشبكة تنطلق منها الأحداث لتبرز نسائج الرحلة وفق سلم زمني، فالمكان لصيق

بالإنسان، فهو المرأة العاكسة لوجوده في العالم الخارجي الذي يجسد الإحساس بالأشياء، فتنبعث عن طريق تعابير مختلفة.

2 / أنواع / أبعاد المكان الرحلي:

تتنوع الأمكنة ضمن أبعاد تغني النص الرحلي بكل أشكاله، "وتفتحه على شحنة واقعية ومرجعية تنتج منطلقات واسترجاعات تستقطب عناصر أخرى تلونها وتساهم في تكوين أفقها، لأن المكان في بعض النصوص هو أنوية لتوليد الحكيم وتذويب الأصوات، ويتحقق التنوع مع كل رحلة بحيث يبنى فضاءاتها"⁽¹²⁾، وتتفرع هذه الأمكنة إلى عدة أنواع منها:

أ / المكان الهندسي:

المكان الهندسي هو ذلك المكان الذي تدور فيه الأحداث، وتنقل أبعاده البصرية فيعيشه القارئ بأبعاده وخصوصياته دون أن يعيش فيه، وهو المكان الذي يصوره لنا الرحالة بتفاصيله وجزيئاته، وهندسته الداخلية والخارجية وما يحيط به، فكلما أبداع الرحالة في وصف الأمكنة كلما قربته أكثر من ذهن القارئ، ويربطه بالمكان فيجعله يتذكر ذكرياته أو طفولته، أو المكان الذي عاش فيه، ويتجلى ذلك في: "هذا ويوجد بمدينة قسنطينة واد عميق جدا، وخيرير مياهه يسمع بشدة قوية، وهو فاصل بين المحطة والمدينة، وعليه ثلاثة قنوات عظيمة، إحدهما أمام محطة السكة الحديدية، والثانية بمكان يسمى باردو، والثالثة مرتفعة على رأس جبلين متقابلين ومربوطة بالسلاسل الحديدية بغاية الإحكام"⁽¹³⁾.

تعتبر مدينة قسنطينة بالنسبة للرحالة فضاء ممتدا بإمكانه أن يعيش فيه، وبذلك نجد أن فكرة التناول السردية للمدينة في الغالب يتخذ منها مرجعا جغرافيا لوقوع الأحداث، كما يشكل المكان الهندسي في نفسية الرحالة مركز اجتذاب دائم، وذلك لأنه يركز الوجود في حدود تحميته.

فهذا المكان مر عليه الرحالة أثناء سفره وتنقله، فشكل عنده مجموعة من الذكريات، لذا نجده في كثير من الأحيان يعمد إلى تصوير الأمكنة لإحداث التواصل بين المتلقي والنص، ويتم تقديم الصورة المكانية في النصوص الرحلية بشعرية تشكل مع بقية العناصر تشكيلا فنيا، فالرحالة يعمد إلى تأسيس أرضية صلبة لأحداثه وشخصياته من خلال تصويره للأمكنة التي تمنح للإحياء والرموز فاعليتها داخل النص، وتفتح المجال للرحالة فرصة التحرك بحرية من أجل تطور الأحداث وتسلسلها ضمن تسلسل زمني تقتضيه طبيعة الرحلة.

فوصف المكان هندسيا لا يعتبر مجرد ديكور خارجي، بل يعتبر عند الرحالة جزءا هاما من رحلته لصنع شعرية النص الرحلي، فالمكان يؤدي بالمتلقي إلى الشعور بتناسق العمل وترابطه، فهو عنصر مكون للأحداث ولا يتسم بالثبات، بل يكسب الرحلة عمقا ويعطي للشكل فنية عالية وزخرفة وإطارا خارجيا، "يدخل المتفرج إلى هذه الكنيسة من باب حديدي، وبمجرد اجتيازه يجد أمامه ممشى متسعا ومستقيما على غاية من النظافة، وعلى اليمين واليسار درجات عريضة جدا، أما السواري التي لا تزال قائمة برأسها إلى الجو فإنها تدل على دقة في الصنع وحكمة في التراكيب، هما في حد ذاتهما دليلان على ما بلغته دولة الرومان من التفوق والحضارة"⁽¹⁴⁾.

وأول ما يلحظه القارئ في هذه الرحلات أن المكان هو الذي يشغل الحيز الأكبر في النصوص الرحلية ويحدد جغرافيتها؛ أي الأماكن/الأفضية التي تم وصفها أثناء رحلاتهم، فيعتبر تحديد المكان من العوامل المحددة لنوعية الشخصيات وطبيعة الأحداث، فيعد بذلك العنصر الأساسي لرسم الخطوط الكبرى للرحلة ككل.

ب/ المكان المعادي:

وهو المكان الذي لا يشعر فيه الرحالة بالراحة، بل يشعر بالخوف والارتباك، وذلك نتيجة لزيارة الأمكنة لأول مرة، أو يشعر بالضيق والحزن والتشاؤم، وقد حدد "غالب هلسا" صفات هذا المكان بقوله: "يتخذ هذا المكان صفة المجتمع الأبوي بهرمية السلطة في داخله، وعنقه الموجه لكل من يخالف التعليمات وتعسفه الذي يبدو وكأنه ذو طابع قديري"⁽¹⁵⁾؛ ويقصد "هلسا" أن هذا النوع من الأمكنة هو الذي يقف للإنسان بالمرصاد في مواجهة بينه وبين الإنسان، فهو أشبه ما يكون بسلطة الأب المتجبر المتسلط في جانب قسوته وسطوته وتكبيله لحريات من حوله، ويتجلى ذلك في: "وعبرنا واديا كبيرا اعترضنا بالطريق فحصل للخيال أتعاب جمّة، وقيل لنا إن تهطل الأمطار لا يمكن اجتيازه حتى تتعطل بسبب ذلك مصالح المسافرين"⁽¹⁶⁾.

يعمد "المهيري" في وصفه للأمكنة حين تشكيلها على نوع من الواقعية والحقيقة حتى وإن كان المكان معاديا، هذا لكي يثبت في قارئه نوعا من المصدقية في نقل الأحداث، ليعطي الإحساس بأن المكان يطابق في شكله الخارجي الواقع فيقنعه أن مرجعيته في نقل الأحداث تعتمد على الواقع والحقيقة.

بالإضافة إلى أن المكان المعادي يشكل للرحالة الشعور بالخوف وعدم الاطمئنان نتيجة الانتقال من المكان الأم إلى أماكن لا يعرفها سابقا بهدف الاستكشاف والمغامرة، ويتضح ذلك في: "أما أنا فقد أخذت أشعر بنوع من الخوف لأنني لا أعرف المدينة، وخشيت أن يدرك أولئك الأطفال علي ذلك، لاسيما وقد قرأت على وجوههم ما قرأت"⁽¹⁷⁾.

يتضح أن المكان المعادي دائما فيه مساحة من الخوف والضيق والتشاؤم، ويسميه النقاد أحيانا بـ "الأماكن الخائفة"، وهو نوع من الأمكنة يتواجد دائما في النصوص الرحلية، وكثيرا ما يوحي المكان المعادي بالضيق النفسي نتيجة عدم استقرار الرحالة، قام الرحالة بتصوير الأمكنة وتكييفها مع مختلف الأحداث التي مروا بها في رحلاتهم، فتنوعت الأمكنة بتنوع الأحداث والمواقف وتوزعت على مساحة النص بشكل فني جميل.

ج/ المكان الأيديولوجي:

وهو المكان الذي يتجاوزه الكاتب للتعبير عن إيديولوجية معينة، فيوظفه في تحقيق المشهد أو الإطار الذي لابد منه لإضفاء الواقع الحسي على الأحداث وعلى الشخصيات التي يدور حولها أو بها الحدث السرد، وقد يتخذ الوظيفة الإيديولوجية سبيلا له في تحقيق ذلك فيتترك للمكان المجال واسعا أن يعبر عن آراء الرحالة وعن وجهات نظره تجاه فكرة ما سياسية أو فكرية أو دفاعا عن رأي محدد دون آخر، ويتضح ذلك في: "عرفت رجلا هناك وتفارقنا على نية اللقاء غدا، ولكن ما كان أشد اندهاشي عندما جاء الغد ومر الصاحب من أمامي ولم يكلمني، وقد اتضح أنه غضب علي لأنني تناولت العشاء عند أحد خصومه في البوليتيك، وقد وقفت من هذا القبيل على ما فهمت منه أن هذا الداء يوشك أن يضع بين مخالفه حتى الذين ينتسبون إلى العلم ضرورة أنني كنت أرى بوارق فتنة بين رجلين يشتغلان هناك بالتدريس أحدهما من قدماء الزيتونة، والآخر من قدماء الأزهر لا يبعد أن يكون منشأها التحاسد والتنازع على مركز رجل العلم والتدريس في المدينة"⁽¹⁸⁾.

إذن، فالمكان هنا وسيلة للتعبير عن الأفكار المختلفة عن طريق الشخصيات محملا للمكان التعبير عن إيديولوجية ما، وقد "تعبير الأمكنة عن واقع اجتماعي أو عن فواصل طبقية تفرق بين الشخص أو تجمع بينها ضمن أمكنة دالة على كل ذلك"⁽¹⁹⁾، استطاع الرحالة نقل صور مختلف الأمكنة الجزائرية عبر الجهات الأربعة، وأن يصوروا المظاهر العمرانية، وطريقة

تشديد الأماكن الدينية وهندسة الأماكن التاريخية، وأن يبثوا بين ثنايا هذه الصور مواقفهم وآراءهم حول هذه الأمكنة، كما تعبر مختلف المناطق على تنوع الثقافة الجزائرية واختلافها.

د/ المكان النفسي:

يعتبر المكان النفسي مكانا يستخدمه الرحالة للتعبير عن مواقفه النفسية اتجاه مكان ما ترك أثرا نفسيا فيه سواء بالسلب أو الإيجاب، ومثل هذا النوع من الأمكنة يكون محاطا بهالة من الدلالات النفسية وانعكاسها على طبيعة الشخصيات وتصرفاتها، ويتضح ذلك في: "ونزلنا أوتيل في غاية الحسن والاتساع والنظافة والترتيب، فاستقبلنا مستخدموه بغاية البشاشة والإكرام"⁽²⁰⁾.

يتضح أن هذا النزل ترك أثرا نفسيا إيجابيا في نفس الكاتب، مما جعله يسجل هذا الأثر في رحلته باعتباره كان مكان سعادة له، في حين هناك أمكنة تترك أثرا سلبيا، "وقد دلتني الليلة الواحدة التي قضيتها بوادي الزناتي أن هذه البلدة لا أهمية لها حتى أن القادم عليها لا يجد محلا حسنا يقضي فيه نوما هنيئا"⁽²¹⁾.

مما سبق نلاحظ أن الرحالة يعتمد إلى تنوع الأماكن وتشكيل صورة عنها لجذب القارئ ولفت انتباهه، فاختلاف صفات الأمكنة وتنوعها من مكان لآخر هي التي تصنع الانتماء الاجتماعي والطبقي للشخصية، والصفات النفسية وطبيعة التفكير والأيديولوجية الخاصة به، والأحاسيس المنبعثة من اختلاف الأمكنة هي التي تساهم في إظهار علاقات الشخصيات بعالمها ورؤيتها له فيصير المكان حينئذ في النص الرحلي يكشف عن الانفعالات الصادرة عن الرحالة سواء بالسلب أو الإيجاب تجاه الأحداث أو في ارتباطها ببعضها ببعض.

كما يعد المكان من العناصر الأساسية التي تؤسس لشعرية النص الرحلي وتخلق جماليته البنائية والفنية، فهو العنصر الرئيسي الذي تتطلبه صناعة الحدث داخل النص، إذ لا يمكن للحدث أن يتم دون وجود مكان لأنه هو الوعاء الذي يحتويه ويتحرك داخله، حتى تتحقق فعاليته وينجح في تأدية الأدوار المنوطة إليه داخل النص الرحلي.

ه/ المكان الحسي المادي:

إن الفضاء الحسي المادي هو الصورة الأولية للفضاء التي يمكن أن تتحول من خلاله أطر الفضاء الرحلي، ومن هنا يتشكل للفضاء المادي أنواع "الفضاء الاجتماعي، السياسي،

الاقتصادي، الذاتي...، فالفضاء لا يتحدد نوعه من خلال كيانه المادي والوظيفة الفعلية المعطاة فيه، بل من خلال إحساس الانطباع الحاصل لنا عنه أيضا⁽²²⁾.

نجد أنّ "الطيب بن عيسى" عبّر عن إعجابه الشديد بالمدن الجزائرية وبمناخها، وموقعها الجغرافي، وطبيعتها الخضراء، فنقل لنا أجمل الصور المكانية بأسلوب أدبي بديع وهذا راجع لانعكاسه لإعجابه الشديد بهذه المناطق، فلم ينس التطرق إلى وصف الأماكن العلمية والأدبية كالمدارس والنوادي، فيقول واصفا إعجابه بالنوادي الموجودة بمدينة الجزائر: "نادي الترقّي يمثل تنسيقا وتنظيما من أعلى طراز، وهو فخر الشبيبة ومظهر قابليتها للصعود إلى أوج التقدم...ولحسن منظر النادي الداخلي واتساعه أصبحت الولائم والحفلات الكبرى كلها تقام فيه من حين إلى حين"⁽²³⁾.

ولقد تعدد الدراسات حول هذا المكون الفضائي واختلفت في تصنيف مواقع الفضاء الجغرافي من مغلق ومفتوح، إلى طبيعي ونفسي، وقد رجعنا لدراسة المكان في الرحلات إلى التصنيف الذي يقسم هذا النوع من الأفضية إلى فضاء مغلق والآخر مفتوح، لما تميزت به الرحلات من مؤشرات تدل عليها، كما يمكن ربطه بالإطار العام الذي يأتي ضمنه والمحدد له، لأن أشكال تمثيل الفضاء في الرحلة هو جزء من البنية الثقافية الاجتماعية.

تنوع الأمكنة وتتوزع في النص الرحلي حسب ما عبر من خلاله الأدباء الرحالة وقاموا بوصف ما شاهدوه فيه، وتظل العلاقة بين الرحالة والأمكنة المقصودة صريحة لارتباطها بنوعية الرحلة، وقد وقفوا من خلال رحلاتهم على إبراز أهم الأمكنة التي رأوها في المدينة بين ثنائية الأماكن المفتوحة والمغلقة، فجاءت كالآتي:

■ الأماكن المفتوحة: هي الأماكن التي يجوب فيها الرحالة بحرية كالأماكن العامة، والساحات والشوارع، والحدائق، وأسماء بعض المدن، وكلها تعتبر أماكن مفتوحة تتسم بالتعدد والتنوع، وظفها الرحالة لإيهام القارئ بواقعية وصدق الأحداث فيقربه منه ويجعله يتفاعل مع الأحداث، ومن مواصفات الأمكنة المفتوحة أنها تتخذ ملامح محددة تجسدها مجموعة من الأماكن النمطية التي تسجل حضورا شبه دائم في النصوص الرحلية، منها: الأسواق الأسبوعية، الأودية، الحدائق، المساجد، المدن، البساتين العمومية، المقاهي، النوادي، المتنزهات، الغابات، الجبال.

عمد الرحالة إلى تنوع الأماكن وتكييفها مع الأحداث، فتعددت وتوزعت بشكل فني جميل، ويعتمد الرحالة على الوصف كثيرا عند ذكر الأمكنة المفتوحة، فيعطونها وصفا خاصا

لأشكالها العمرانية ومكوناتها الجمالية، وهذا ما ينطبق على جميع الرحلات، فنقلوا لنا طريقة بناء العمران الجزائري وخصائصه المميزة من مواد البناء والهندسة، فوصفوها بدقة بارعة، وذلك راجع لإعجابهم بها، يقول "الطيب بن عيسى" في رحلته واصفا مدينة قالمة: "بلاد جميلة مرتفعة عن سطح الأرض، وجمالها ليس بموقعها الطبيعي فقط بل حتى من تنظيمات شوارعها وتنويرها بالضوء الكهربائي الذي يظهر مفعوله ليلا"⁽²⁴⁾.

■ الأماكن المغلقة: هي الأماكن التي تحدد وتعين بأبعاد تحدّه وتقيده، وهي في الكثير من الأحيان تختص بالأماكن الخاصة كالبيوت والفنادق والمستشفيات التي يكون الانتقال فيها محكوم بقيود وأصول محددة، وهذه الأمكنة لها دور كبير في سير الأحداث وتطورها، وحركة الرحالة ضمن ضوابط معينة، وهي: الكنائس، الفنادق، الحانات، الخان، عربات الرتل، المنازل، الميضة.

تعددت الأمكنة بين ثنائية الانفتاح والانغلاق في الرحلات نتيجة للكثير من الأحداث التي واجهها الأدباء الرحالة، فالانتقال من المكان المغلق إلى المكان المفتوح أو العكس يمنح تحولا وتغيرا في المسار الرحلي، ويجدد الأفكار، ويبعد الرتابة عنها، ويتم هذا الانتقال بطرق مختلفة بحسب طبيعة الأحداث، فيختار الرحالة المكان حسب ما يتناسب من أجل أن يتحرك.

من خلال التحليل السابق للمكان بأنواعه وصنوفه يتضح أن المكان مكون أساسي ورئيسي في تشكيل بناء النص الرحلي، فهو الذي تدور حوله جل الأحداث، مما يساهم في الكشف عن نفسية الرحالة وإيديولوجيته، فهو لا يأتي اعتباطا وإنما لتحديد جغرافية المسار الرحلي من الانطلاق إلى غاية الوصول إلى المكان المحدد، فاستطاع الرحالة نقل صور مختلف الأمكنة الجزائرية عبر الجهات الأربعة، وأن يصوروا المظاهر العمرانية، وطريقة تشييد الأماكن الدينية وهندسة الأماكن التاريخية، وأن يبتثوا بين ثنايا هذه الصور مواقفهم وآراءهم حول هذه الأمكنة، كما تعبر مختلف المناطق على تنوع الثقافة الجزائرية واختلافها.

خاتمة:

- وفي ختام القول من خلال دراستنا لمجموعة "خمس رحلات إلى الجزائر" نستنتج مجموعة من النتائج نجملها كالآتي:
- اهتمام الرحالة بوصف المكان وصفا دقيقا، بحيث ركزوا على التفاصيل والأبعاد الدقيقة التي ساهمت في تحريك الأحداث، هذا ما أدى إلى تنوع الأمكنة وتعددتها في المتون الرحلية محل الدراسة.
 - هندسة الفضاء في الرحلات صنفت الأماكن ورسمت معالمها وفق: المكان الهندسي، الإيديولوجي، النفسي، وكلها أمكنة تتنوع وتتعدد بحسب ما يعيشه الرحالة أثناء تنقله وسفره.
 - مساهمة الأمكنة المفتوحة والمغلقة بشكل كبير في تحريك الأحداث ورصد المواقف المختلفة التي مر بها الرحالة في سفرهم، وهذا ما يدل على أهمية دراسة المكان في الأدب الرحلي.
 - شكلت أمكنة العبور في كل الرحلات أمكنة الانطلاق عند بلوغها

قائمة المصادر والمراجع:

- [1] إبراهيم صحراوي، بنية النص الروائي، دار الآفاق، الجزائر، ط1، 2001
- [2] زعرب عودة صبيحة، جماليات السرد في الخطاب الروائي غسان كنفاني، دار مجدلاوي، عمان، 2006
- [3] شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، التجنس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2006
- [4] عبد الحميد زايد، المكان في الرواية العربية، الصورة والدلالة، كلية الآداب، دط، 2003
- [5] محمد الخضر حسين، خمس رحلات إلى الجزائر، 1904-1932، تحرير: محمد عابد الجابري، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الإمارات، ط1، 2004
- [6] أسماء يوسف ديان صالح، الصورولوجيا في الرواية دراسة مقارنة بين روايات عربية وأمريكية مختارة، رسالة ماجستير بإشراف رياض شنتة جبر، جامعة ذي قار، العراق، 2014
- [7] حسين نمير، محمد صابري، "صورة المجتمع الجزائري بجنوب الصحراء خلال العهد العثماني على ضوء رحلة أبو سالم العياشي"، مجلة دراسات تاريخية، مج10، ع1، 2022

التهميش والاقتباس:

- (1) نمير حسين، صابري محمد، "صورة المجتمع الجزائري بجنوب الصحراء خلال العهد العثماني على ضوء رحلة أبو سالم العياشي"، مجلة دراسات تاريخية، مج 10، ع 1، 2022، ص 297
- (2) أسماء يوسف ديان صالح، الصورولوجيا في الرواية دراسة مقارنة بين روايات عربية وأمريكية مختارة، رسالة ماجستير بإشراف رياض شنتة جبر، جامعة ذي قار، العراق، 2014، ص 10
- (3) إبراهيم صحراوي، بنية النص الروائي، دار الآفاق، الجزائر، ط 1، ص 133
- (4) زعرب عودة صبيحة، جماليات السرد في الخطاب الروائي، دار مجدلاوي، عمان، 2006، ص 95
- (5) محمد الخضر حسين، خمس رحلات إلى الجزائر، 1904-1932، تحرير: محمد صالح الجابري، دار السويدية للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الإمارات، ط 1، 2004، ص 47 المهيري
- (6) سعيد أبو بكر، شهران في عمالة قسنطينة، ص 73
- (7) محمد الخضر بن حسين، الرحلة الجزائرية، ص 33
- (8) حمزة بوكوشة، جولة من التلال إلى الرمال، ص 122
- (9) الطيب بن عيسى، الجولة الجزائرية، ص 109
- (10) أحمد حسين المهيري، الرحلة الجزائرية، ص 57
- (11) شعيب حليقي، الرحلة في الأدب العربي، ص 350
- (12) شعيب حليقي، الرحلة في الأدب العربي، ص 351
- (13) أحمد حسين المهيري، الرحلة الجزائرية، ص 50
- (14) سعيد أبو بكر، شهران في عمالة قسنطينة، ص 91
- (15) زعرب عودة صبيحة، جماليات السرد في الخطاب الروائي، غسان كنفاني، ص 98-99
- (16) أحمد حسين المهيري، الرحلة الجزائرية، ص 59
- (17) سعيد أبو بكر، شهران في عمالة قسنطينة، ص 82
- (18) سعيد أبو بكر، شهران في عمالة قسنطينة، ص 94
- (19) إبراهيم صحراوي، بنية النص الروائي، ص 137
- (20) أحمد حسين المهيري، الرحلة الجزائرية، ص 54
- (21) سعيد أبو بكر، شهران في عمالة قسنطينة، ص 78
- (22) عبد الحميد زايد، المكان في الرواية العربية، الصورة والدلالة، كلية الآداب، دط، 2003، ص 16-18
- (23) الطيب بن عيسى، الجولة الجزائرية، ص 111
- (24) الطيب بن عيسى، الجولة الجزائرية، ص 109